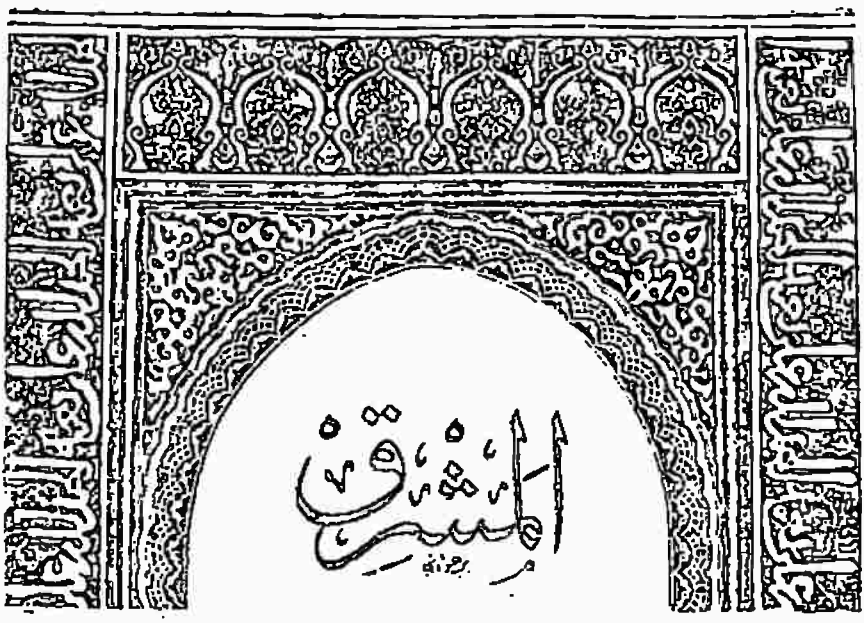

السنة الحادية والثلاثون — كانون الاول ١٩٣٣

الدرة النفيسة

في صلوات الكنيسة البيزنطية

تاريخ ترنيمتين من ترانيم الطقس البيزنطي

بقلم الشماس انطون هبي

اولًا: ترنيمة الشكر المائية المعروفة بأسم النور البهي ἡ ἱλαρὸν φῶς

ثمين من ترانيم الاجيال المسيحية الاولى ترنيمة الشكر المائية التي تقال في الغروب . كان مؤمنو الكنيسة القديمة يرتلون في اجتماعاتهم الدينية عددًا غير محدود من المزامير المقدسة ، ثم يرتجلون ، لاسيما في بعض الاعياد الرسمية او التقدمات (*Vigiles*) الجزيلة الاهمية صلوات سموها : « مزامير خاصة » « *psalmi idiotici* »[1] وقد بالغ اريوس وآله في استعمال هذه الترانيم الخاصة الشعبية لبث اضاليلهم ، فنفت

(1) *cf.* P. Rebours, *La Musique grecque*. p. 130 et 132

الكنيسة من معابدها عوائد الارتجال في الصلاة ، وحذفت كثيراً من المزامير الجميلة المرتجلة التي كانت احياناً غاية في رونق المعاني والالفاظ كما يتضح لنا ذلك من ترنيمة الشكر المسائية التي نحن الآن بصددها وهي من عداد «المزامير الخاصة» القليلة التي لم يقع عليها الحكم المبرم، فوافقت عليها الكنيسة ، واثبتتها في ليتورجياتها وطقوسها.

ومما يجدر بنا ذكره انّ هذه الترنيمة الانيقة قد نبتت بارض افسدتها الهرطقات المضادّة للثالوث كهرطقة اريوس الذي انكر الوهية السيد المسيح ، وهرطقة مكدونيوس بطريرك القسطنطينية الذي انكر الوهية الروح القدس وادّعى ان الاقنوم الثالث من الثالوث الاقدس ما هو سوى خادم الآب والابن، الى غير ذلك من الهرطقات المضلة . فكانت ترنيمة الشكر المسائية ترنيمة الثالوث الاقدس الخاصة تجمع في صلاة الغروب الشعب المؤمن حول عقيدة الايمان المهدّدة ، حول حقيقة الوهية الثالوث . كانت قانون ايمان المؤمن ونشيد الشهداء الظافرين في حلبة العذاب والاستشهاد.

اما مؤلف هذه الترنيمة فمجهول بعد ، وغيوم كثيفة حائلة دونه ودوننا . فان القديس باسيليوس في مؤلفه عن الروح القدس περὶ τοῦ ἁγίου πνεύματος قد نوّه بهذه الترنيمة الانيقة وصرّح بجهله مؤلفها ؛ ثم تابع كلامه مقدماً شواهد انتقاها من التقليد تبرهن عن الوهية الروح القدس . فذكر ترنيمة خلّفها القديس اتيناجينوس لتلاميذه فقال : « من عرف ترنيمة اتيناجينوس ، النشيد الذي خلّفه كورث لتلاميذه حين كان متجهاً الى ميدان الاستشهاد ، فهذا يعرف بذات الحال ايمان الشهداء بالروح القدس.» وقد استنتج البعض من هذا النص ان مؤلف ترنيمة الشكر المسائية هو نفس القديس اتيناجينوس . على ان نصّ القديس باسيليوس لا يقبل قط نتيجة كهذه ، لا بل ان رأياً كهذا هو نتيجة قراءة سريعة وسوء فهم في نصّ العالم القديس[1].

الاورولوجيات (السواعيات) اللاتية والاورولوجيات العربية القديمة تنسب

(1 *cf. Dict. d'archéologie* ... col. 3106 : *Athénogène.* – et Cardinal Pitra, *Hymnographie grecque.* p. 122.

هذه الترنيمة الى القديس سوفرونيوس بطريرك اورشليم المتوفى سنة ٦٣٨ . بيد ان هذا الرأي ليس له اصل ثابت اذ نجد في الرق الاسكندري (*codex alexandrinus*) المنتمي الى الجيل الخامس ترنيمة الشكر المسائية ، في حين ان القديس سوفرونيوس لم يكن ولد بعد . لا بل ان القديس باسيليوس الذي عاش في الجيل الرابع ينسب هذه الترنيمة بالقدم : ἀρχαίαν τὴν φωνήν . ولذا حذف المرسلون البولسيون الكرام في طبعتهم الجديدة لكتاب الاورولوجيون تلك العبارة التي تنسب للقديس سوفرونيوس ترنيمة الشكر المسائية الجميلة.

واليوم ظلام ادكن يكتنف مؤلف الترنيمة التي ننشدها . فربما يوماً ما ينبعث النور من رقّ من الرقوق المنطرحة في زوايا المكاتب الكبرى فيبدّد هذه الظلمات ، ونكتسب به علماً ومنفعة.

على اننا ان كنا نجهل مؤلف ترنيمة الشكر المسائية فلا نجهل ما لهذه الترنيمة من بديع المعاني وعظيم الشأن في طقس صلاة الغروب الخشوعية. فهي اليوم من تراتيم الغروب الاساسية « هي محور تدور حوله كافة صلوات الغروب . »[1] فالكهنة والمرتلون يرنمونها بافخر الالحان الكنسية وامجدها باللحن الثاني البيزنطي . هي ملخص ايماننا بالالوهية. فاينما حلّ الزائر ودخل كنيسة من كنائس الطقس الملكي ساعة الغروب يسمع اصوات الكهنة والمرتلين تنشد ترنيمة الشكر المسائية بنغمة قد تلذّذت وترنمت بها الاجيال الطوال المتعدّدة. على ضفة النيل ، على ذرى جبال صهيون، على آكام لبنان ، في وهاد بردى والعاصي ، يسمع نفس الكلام وذات النغمة تصعد ذاهبة في الفضاء معربة عن وحدة الايمان بالوهية الثالوث الاقدس.

ثانياً : ترنيمة « بواجب الاشتهال . . . » Ἄξιόν ἐστιν...

ان كانت ترنيمة الشكر المسائية حائزة على منزلة رفيعة ومقام سام بمعانيها اللاهوتية الخطيرة واستعمالها في الليتورجية الالهية البيزنطية . فان ترنيمة البتول

(1) R. P. Couturier, *Liturgie grecque melchite*. T. II, les Vêpres — *cf.* L'Union des Eglises, 1925. p. 470

«يواجب الاستهال» لن تكون اقل اهمية معنى واستعمالاً في الطقوس ، وهي آخذة بافئدة الشعب المؤمن مأخذها ، ولا عجب في ذلك اذ انها تخص والدة الاله التي عشقها شرقنا المحبوب.

تتألف هذه الترنيمة الانيقة من قسمين : القسم الاول: «يواجب الاستهال حقاً نغبط والدة الاله الدائمة الطوبى البرينة من العيوب امّ الهنا». والقسم الثاني: «يا من هي اكرم من الشاروبيم وارفع مجداً بغير قياس من السارافيم التي بغير فساد ولدت كلمة الله حقاً انك والدة الاله اياك نعظم».

وقد آثرنا ان نشرح اولاً الجزء الثاني لما في تاريخه من الوضوح . فهو طروبارية مأخوذة عن ديوان للقديس كوزماس[1] تستعمله الكنيسة البيزنطية في ليتورجيتها نهار الجمعة من اسبوع الآلام . وقد اخذت هذه الطروبارية في الطقوس دوراً مهماً ، فيغنيها المرتلون تارة منفردة كما في الاودية التاسعة ، وطوراً مع القسم الاول «يواجب الاستهال» كما في القداس والمديح والبركليسي والتطوافات . وقال عنها العالم اليوناني جورج پاپاذوپولس في مؤلفه عن الترانيم الكنسية ، ان القديس كوزماس قد حذا في تأليفها حذو القديس افرام السرياني في نشيده :

«Τὴν τιμιωτέραν τῶν χερουβὶμ καὶ ἐνδοξοτέραν ἀτάκτως τῶν σεραφὶμ στρατιῶν»

«يا من هي اكرم من الشاروبيم وارفع سمواً من جميع الطغمات السماوية»

ومهما يكن من امر تأليفها فانها تلبث اليوم من طروباريات الطقس البيزنطي الاساسية.

---

(١) والد القديس كوزماس في دمشق . وكان اخا القديس الملّامة يوحنا الدمشقي بالبنوّة . درسا معاً العلوم الراهنة على كبار المطبين وترهب القديس كوزماس كأخيه الملقان ثم اقيم اسقفاً على مدينة مَيُوما (Mayuma) او جينا الواقعة جنوبي يافا (ويضعها فريق مكان غزّة) التي اشتهرت بمالبتها الاسرائيلية وربّانيها الملاعنة ، وقد حفظ التلمود كثيراً من اقوالهم وتعاليمهم.

فكان لجينا منذ اوائل الجيل الرابع كنيسة واسقف ، والقديس كوزماس حلقة من سلسلة مطارنة هذه المدينة الآهلة قديماً بالسكان . وكان من كبار الشعراء والمرتلين في عصره (القرن الثامن) وهو مؤلف القوانين الثمانية الاودية (Ὠδαὶ Τῆς) التي تقال في البيّعة الطيبة.

اما الجزء الاول « بواجب الاستهال ... ام الهنا » فقد نسجت الرواية حول تاريخه معطفاً من القصص والحوادث الخيالية ، وامتزج مع تعاقب الايام الغثّ بالسمين ، فاصبحت معرفة الحقيقة التاريخية ضرباً من المحال. وان رواية[1] شائقة بين رهبان جبل آثوس المقدس[2] تنسب ترنيمة « بواجب الاستهال » ... الى الملاك جبرائيل . واليك ايها المطالع اللبيب هذه الرواية بكاملها.

في اواخر القرن العاشر لمّا كان « جبل آثوس المقدّس » في اوج الرقيّ والازدهار ، وقد شيّدت على آكامه وفي وهاده الاديرة العامرة والمعابد الفخمة ، كان في وادٍ من الوديان كسته الطبيعة ثوب الجمال والبهاء كوخ صغير ، تحت حماية العذراء سيدة النياح ، يبعد عن دير كاريس (Karyés) والبندوكراتور (Pandocrator) مسافة ضئيلة ، يقطنه راهب جليل قد كلّل الشيب هامته وتلميذ له في زهرة العمر والشباب قد درّبه على ممارسة اسمى الفضائل الرهبانية . فدعا الراهب الشيخ يوماً تلميذه وقال له : « يا بنيّ ، اليوم يوم سبت وتقام في كنيسة البروتات (رئيس اديرة الجبل) صلاة الغروب والاغريبيّة. فانا ذاهب الى الصلاة. اما انت فابقَ هنا الى مجيئي وصلّ على قدر استطاعتك صلاة الفرض المقدّس . » ثم بارك الشيخ تلميذه وسار في سبيله . فاقتربت ساعة الغروب وعقب اضطراباً واضطراماً النهار السكونُ والسلام. وارخى الظلام سدله الدكناء على الطبيعة بأسرها . فقام الراهب التلميذ يناجي تحت اجنحة الظلام بارئ الطبيعة والخليقة . وفيما هو يصلي سمع باب الكوخ يقرع. فاوقد سراجه وفتح لزائره الباب . فظهر له شيخ جليل يتجلى البشر والجمال على طلعته مرتدٍ ثوب الرهبان القشف . فامسكه بيده وادخله واجلسه على حصيرة النسّاك وقدّم له من الطعام ما عنده . ثم اضافه تلك الليلة في كوخه . ولما حان وقت صلاة الصبح المعروفة بالاورثروسي (ὄρθρος) ، نهض الناسك

---

(١) cf. *Echos d'Orient* 1898-1899, p. 227

(٢) جبل آثوس رأس (*promontoire*) من شبه جزيرة كلسيديك اليونانية ، طوله ٥٠ كيلومتراً وعرضه ٦ كيلومترات . ابتدأت فيه الحياة الرهبانية في القرن العاشر. وهو اليوم جمهورية رهبانية يدير شؤونها عشرون راهباً مقيمون بدير كاريس .

الشاب وضيفه لتلاوتها فصليا قسماً وافرا منها وافضيا الى ترنيمة « يا من هي اكرم من الشاروبيم . . . » فرتلها الناسك كعادته . اما الضيف الجليل فلم يتابع الصلاة بل راجع الترنيمة نفسها مضيفاً اليها في الابتداء هذه العبارة : « يواجب الاستهال حقاً تنبط والدة الاله الدائمة الطوبى البريئة من العيوب ام المنا . » فذهل الناسك لهذه الصلاة الجديدة وقال لضيفه بملء العجب والاستغراب : « اننا لا نرتم بجبلنا المقدس سوى « يا من هي اكرم من الشاروبيم » ولم نسمع قط ترنيمة « يواجب الاستهال » واجدادنا لم يعرفوها ايضاً ، ومع ذلك ارجو منك ايها الاخ الوقور ان تكتب لي هذه الترنيمة البديعة كي يتسنى لي ان ارتلها انا ايضاً .

— « الي اذاً بقرطاس ومحبرة » ، اجاب الشيخ الغريب .

— « ليس عندنا ههنا من القرطاس والحبر شيء . »

— « اتني بلوح . . . »

فقدم له الراهب اليافع لوحاً ، واخذ الشيخ يرسم باصبعه على اللوح تلك الصلاة العجيبة التي رتلها . ثم قدمها للناسك الشاب . وقال له : « هكذا يترتب عليك وعلى سائر الارثوذكسيين ان ترتلوا هذه الصلاة . » وتوارى عن الانظار . فتعجب الناسك مما حدث وذهل لرؤيته الترنيمة المرسومة على اللوح محفورة عليه كانها على شمع . فتحقق لساعته ان السماء قد جادت على الارض بانشودة جديدة لتمجيد والدة الاله .

ولما رجع الراهب الشيخ من الاغريبية قص عليه تلميذه ما حدث له وأراه اللوح ورتم له الترنيمة الملائكية . فسر الشيخ غاية السرور وحمل اللوح الى البروتات والى سائر الآباء ، وقص عليهم الحادث العجيب . فحمد الجميع البتول الطاهرة التي لا تزال تظهر عطفها نحو الارضيين . وبعثوا باللوح الى القسطنطينية حيث استلمه البطريرك والملك بغاية الجذل والاحترام ، واوعز البطريرك المسكوني الى سائر الكنائس البيزنطية ان تدخل هذه الترنيمة الانيقة في عداد ترانيمها وصلواتها . فدعي الكوخ « كوخ يواجب الاستهال » وسمي الوادي وادي الترتيل « Τὸ ἄσμα » تذكاراً للنشيد الملائكي الذي

رغبة فيه الملاك لاول مرة.

هذا ما تحدثنا به الرواية الآثوسية عن اصل ترنيمة « يواجب الاستهلال » الخشوعية . وزعم الراهب مبارك من رهبان جبل آثوس المقدّس المتوفى في اوائل القرن المنصرم ان هذه الحوادث التي تسردها الرواية قد جرت سنة ٩٨٠ على عهد باسيليوس وقسطنطين پورفيروجينية Porphyrogénète والبطريرك نيقولاوس كيزوڤرجيس Chrysovergès. وبرهاناً على ادعائه هذا قدّم نصوصاً انتقاها من سينكسارات وميناوات القرن العاشر والحادي عشر التي تعيّن في الحادي عشر من حزيران عيد العذراء في وادي الترتيل ἐν τῷ χάει - على ان ادلته ليس لها معنى كبير وقوّة مقنعة. ومما لا مرية فيه ان وادي الترتيل قد اطلق عليه هذا الاسم حتى اواخر القرن الرابع عشر. وقد ذكر سمعان التاسالونيكي في كثير من مؤلفاته هذه الصلاة العجيبة التي لم تزل حتى اليوم من ترانيم الطقس البيزنطي الاكثر استعمالاً وشهرة وكثيراً ما تقال مع « يا من هي اكرم من الشاروبيم . . . » حتى انه يخال للمرء ان هاتين الترنيمتين هما ترنيمة واحدة ونشيد واحد . وقد جعلها الموسيقيون الكنسيون موضوع حبهم وتأليفهم ، فعلقوا عليها الالحان الجميلة المتنوعة . حتى انه قلما يوجد نشيد كنسيّ وفرت الحانه وتعددت نغماته مثل النشيد المزدوج الذي نحن الآن بصدده ، نشيد مريم البتول الخاص . نفعنا الله بشفاعاتها وزادنا حباً وتعلقاً بها وبابنها الحبيب.